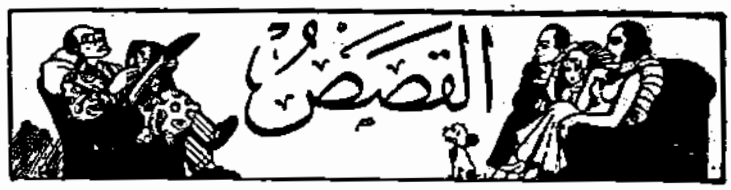

الشيخ الأعزب

للأديب لبيب السعيد

فى صدر أيامه لم يطاوعه طموحه على الزواج من ابنة عمه ؛ بدا له يومئذ أنه خليقٌ بالفِرار من بيئته إلى بيئة أعلى وأقدر .

ولما قيل له : بنت فلان أشهر تاجر فى الحى مهذبة وجميلة ، رأى أن آماله أسمى أيضاً من هذه البنت وأبيها ، ورأى قُدْرَته أجدرَ أن تُنيله نسباً أجلّ ...

وأحسّ أن آمال كثيرات من صبايا الحىّ وذويهنّ تترامى إليه ، لأنه موظف فى الحكومة بخمسة عشر جنيهاً ، والموظفون الماثلون من أبناء الحيّ آحاد ، فزهاه ذلك وسرّه ، ولكنه ظل على طموحه وعلى اعتقاده فى إمكان إحراز زوجة غنية جدًّا من أسرة بارزة جدًّا ، يتسامى بها فى الوظيفة ، ويوارى فى غناها حقره ، ويجبر بجاه أبيها وذويها صدعه ...

كان يأمل فى زواج الغنية ذات الجاه دنيا سعيدة : دنيا خالها يرف عليها الروح والريحان ، وتنتثر على مداورجها الزهور الضواحك

ومضت من عمره أربعون سنة ...

وعرف عندئذ الهدف الذى ينبغى له – فيما يعتقد – الرمى إليه ... عرف « حنيفة » بنت « أمجد باشا » ، فمرف فتنةً ضلّ فى تيهها فكره ... لقد رأى زواجه منها معراجاً إلى كل الغنى والشرف ، وحلم سريعاً فى قهر أعدائه من الأقارب وزملاء الديوان ، ومواجهتهم بأنسباء يشرّفون ، واستحضر فى خاطره ما سيلق من سعادة حين يذكر اسمه إلى جانب اسم « أمجد باشا » وود من كل قلبه لو تمت الخِطبة حالاً ، ونُشر اسمه واسم الباشا معاً ولو فى إعلان وفاة !

وترقرق فى صدره الأمل ، فأذاع بالأمر لبعض خاصّته ، وشاع لوضوحه ذكر .

ولكن « أمجد باشا » استمهل معتذراً ، ثم ماطله غير مكترث ، ثم ترامي عنه أنه يأبى هذا الزواج ، لأن « أميناً » ليس من طبقته ، ولأنه لم يستوف طَلِبَةَ فتاته من الغنى والمنزلة والوسامة .

وصدم هذا الرفض «أميناً» ، ولكنه رأى أن لا بد من عدم التخاذل ، وعزم ليستأسرن من أىّ معقل مَن تعادل « حنيفة » نشباً ونسباً . ولكن — واخيبتاه — إن سنه الصاعدة ، وراتبه المتواضع خيَّبا مطمحه وأعجزاه عن منيته

واليوم – وما أسرع كرَّ الغداة ومرَّ العشى ! – ذرّف أمين على الخامسة والخمسين ، فهو يطامن كثيراً من جماح آماله ، ويتطلع راضياً إلى الأسر التى على شاكلته ، ولكن مرضه الظاهر يصرف عنه النظر ، وهو بعْدُ غادٍ قريباً على أمر شديد كريه : المعاش !

كل شىء يشعر أميناً أنّ الأيام تقف به على ثنية الوداع ، ولكنه مع ذلك متشبث بالأمل ... إنه ينشد زوجة تخلص له الحبّ ، وتأسو الجراحات ، وإنّ طيف هذه الزوجة المجهولة ليُراوحه ويغاديه ! لقد نَهل فى سنى عمره الذاهب من كل شىء ولكنه يشكو الأوام ... فهو يريد لقلبه الكسير قلباً يروَى من رحمته ؛ يريد مثابةً ينفض لديها شكاياته ونجواه ؛ يريد لنفسه المنّاة تسليةً وتأسيةً وولاء ... إنّ به حنيناً مبرّحاً إلى جناح يكنفه فى شيخوخته ، ولكنّ الحقيقة المضة : حقيقةَ صحته التى تحيَّف منها السنُّ والمرض ، حقيقة معاشه المحدود الذى لا يكفل العيش الرافغ لعروس تُساق إلى شيخ ، وطفل سيغشاه اليتم فى مطالع حياته . هذه الحقيقة كانت تدفع ذلك الطيف فى عنف ، وتؤكد لأمين أن أمانيه فوق ما يجوز له تمنيه ، وأنه يحاول العَدْوَ وراء فائتٍ ليس يُلْحق

* * *

ويرى «أمين» رجلاً وزوجته يسيران فى طريق ، أو يجلسان فى طنف ، فيغبط الرجلَ على نعمة الشريكة ، ويُبدىء ويُعيد فيما تريق الأليفة لأليفها من العطف ، وتبذله من العون ، وتطعمه من الحنان ... ويسبح فى خيالات ما لها قرار ...

ويدعى « أمين » إلى حفلات الزواج ، فتهفو مناظرها بروحه إلى الزوجة ، وتصيب كلمات المأذون فى فضل الزواج الوترَ الأرنّ من قلبه ، وتطلق فيه عاطفة الأبوة الحبيسة ، وتزيده شعوراً بالوحشة

ويسائل « أمين » نفسه : ألَـمْ يأن لى أن أقعد هذا المقعد

الحبيب : مقعد « عريس » من والد عروس ، وأن أقولَ وأسمع هذه الصيغة العذبة : صيغة القران ؟ أمات الأمل فى أن يتجه إلى يوماً جمع من هذه الجموع تلك العبارة العذبة : « مبروك ، مبروك ، يا عريس » ؟

وينثنى أمين وطرفه غارق فى الدمع

ويزور أمين صديقاً مريضاً فينبطه — مع ما يشاهد من كربات المرض — أشد الغبطة ، لأنه يرى زوجته تحدب عليه ، وتحتمل مشقة تمريضه ، ولأنه رأى صبياً يافعاً يقود الطبيب إلى المنزل ، ويجرى إلى الصيدلية محزوناً ، ويرى طفلاً مبغوم الكلام يخطر لاهياً أمام سرير أبيه المريض ، فتأنس به نفس الأب وتُشرق

هذه البسمات التى يراها فى ثغور الأطفال لا بد أنها تنير لآبائهم سبل الحياة وتكشف عنهم غواشى اليأس ! ليت له مثلها فى دنياه التى لا شية فيها من النور !

ويرى أمين الآباء أشقياء مُملقين من كثرة الإنفاق على بنيهم ، فيتمنى من كل قلبه لو شق شقاءهم وأملق إملاقهم . إنه يؤمن بأن الآباء هم كل السعادة وهم كل الغنى ، وأن فى كلمة « بابا » وحدها كنوزاً يهون فى سبيلها كل عزيز !

ويسائل نفسه أيضاً : هذا الكدّ الذى أبذل ، ما جناه ؟ فينثنى مسلوب اللُّبّ حين تجيبه : لا شى ! وغداً تموت ، ولكن لا كبيتة الناس ، فهم يحيَوْن فى بنيهم ، وأنت ستموت كأقسى وأوفى ما تعنى اللغة بلفظة الموت

بمن يتأسى فى أشجانه ؟ الظاهرو البؤس فيما حوله هم كتبة الدرجة الثامنة والخارجون عن الهيئة وخدم المطعم وندُل القهوة ، ولكنه أشقى من هؤلاء جميعاً . إنهم سيحيَوْن بعد مماتهم ... وإن الفرد منهم ليجد آخر اليوم قسيمة لحياته ، يطرح لديها أثقاله . فأما هو — فياويح له — محروم يبثّ شكاته جدراناً لا تسمع ، وينشد الحنان والألفة هنا وهناك فلا يجد غير قسوة الحياة وظمأ الروح وشقوة الضمير

ما أشد عوزه إلى يد رقيقة يمسها وتمسه ! ! فى صدر «أمين» فيوض من الحنان تريد الانسياب فليت له من يتلقاها ! ألا قلوب تنبض مع قلبه نبضات واحدة بشعور واحد ؟!

ويعالج « أمين » مع ذلك كله البسمات ، ويتكلف جاهداً المظهر الشاب ، ويحاول أن يدفع عنه الوهن ، ولكن البسمات أماتها الزمان ، والمظهر الشاب غطى عليه الجهد الثقيل والعمر اليائس ؛ والوهنَ ... احتلّ بَدَنَ أمين فى غير اكتراث !

حدثنى عن « أمين » معارفه القدماء ، فجلوا لى كثيراً من ماضيه . وكنت وإياه أخيراً منتدبين فى الأسكندرية ، وكنا فى فندق واحد ، فخلا إلىّ ذات مساء ، وأفضى إلىّ بكل قصته . كان يتحدث بلهجة مذنب يريد أن يثأر لضميره من نفسه . . . وكان كطفل بيّن السذاجة لا يعمى على سامعه شيئاً من وصف مشاعره وسرائره ؛ وكان يسرق الدمع حياء ؛ وكانت له زفرات وجيعة .

وأخرج فجأة من جيبه صورتين ، فأطلعنى عليهما . كانت إحداهما لفتاة رائعة الجمال ، وكانت الأخرى لطفلين كلهما عذوبة . وسألته مستغرباً وأنا أرى من نظراته أنه جدّ حفىّ بأصحاب هاتين الصورتين : ما شأن هؤلاء ؟ فأجاب ، والبراءة فى وجهه : « اخترت صورهم من محل بيع الصور ... أعجبونى ... أنظر — ما أحسن هذه زوجة تجمل بها الحياة ! وما أحسن هذين ولدين ينضران العيش ! »

أوجع أمين قلبى تلك الليلة !

وانقطع عن التردد علىّ وعلى زملائنا أمسيتين على غير عادة ، وسألناه فى الصباح عن السبب ، فأجاب فى اختصار : أمر خاص واستحينا أن نستجليه هذا الأمر فسكتنا

وأتى صبىٌّ إلى الفندق فى الأمسية التالية يسأل عن الأستاذ « أمين » المقيم بالحجرة رقم ٨ ، وكنا نحن زملاء أمين فى بهرة الفندق جالسين نسمر ، فسألنا : لم ؟ فقال : لأعطيه صورة عائلته ، فهو يتعجلها . وعجبنا ، فأمين حقيقة ينزل فى الحجرة رقم ٨ ، ولكنه لا عائلة له . وسأل أحدنا الغلام : أية عائلة ؟ ربما كنت تقصد أمينا آخر . فقال الغلام وهو يناوله الصورة : أريد الأستاذ أمين المرسوم هنا . وضحك صاحبنا ضحكات تمتزج فيها السخرية بالدهشة ، وقام يطلعنا جميعاً على الصورة ، والجمع يضج بالضحك . ونظرت فيها فوجدت أميناً بعينه ، وقد جمع الرسام بينه وبين الصور التى سبق أن أبدى لى إعجابه بها : صورة الفتاة الرائعة الجمال التى يستحسنها زوجة ، والطفلين المذنبين اللذين يستحسنهما ولدين . لقد اتخذ من هذه الصور المختارة أسرة طيبة يبدو هو فيها كأنه أب آمن السرب ، له من أهله قرب وأنس ، وله فيهم رجاء !

وأقبل أمين والصورة فى أيدينا ، فحاول الابتسام أولاً ، ثم انطفأ وجهه مرة واحدة ، ثم ارتمى فى أقرب مقعد يبكى وينشج .

(المنصورة) لبيب السعيد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)